شرعة ومنهاج

عبد العزيز بن مرزوق الطريفي

١٠

الفتنــــة

لقاءات علمية مرئية (مفرَّغة)

الفهرس

الفتنة [١] 1

– مفهوم الفتنة 2

– أهمية الحديث عن الفتنة 3

– تحديد الفتنة 4

– أنواع الفتنة 7

– أولوية درء الفتنة العظمى 7

– موقف العلماء من الفتنة 8

– اعتزال الفتنة 11

– فتنة موالاة الكافرين 11

– فتنة العلماء والدهماء 12

– الإنفراد ببيان الفتنة 13

– الاستعاذة من الفتنة وشرها 14

– الحاكم و الفتنة 14

– توقع الفتنة 15

---

١) رابط الحلقة http://www.youtube.com/watch?v=UjP_2rwyRS8

مفهوم الفتنة

مفهوم الفتنة من جهة اللغة هو الامتحان والاختبار والابتلاء والتغير الذى يطرأ على الشيء ؛ ولهذا حرق الذهب والفضة وتصفيتها يسمى فتنة، فكل تغير يطرأ على الشيء يسمى افتتان ، وبقاء الشيء على ما هو عليه سواء كان حقًا أو باطلاً يخالف الفتنة .

والمراد بالفتنة من جهة لغة العرب هو الإحراق وكذلك الإذابة أوالكي بالنار ؛ ولهذا حينما ذكر الله تعالى قصة أهل الأخدود قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ (البروج :10) أى أحرقوهم بالنار فجعل الله تعالى ذلك فتنة ، ومن حكمته سبحانه يورد الفتنة ليميز الإنسان ، فيبتلى الله تعالى الناس ليميز الخبيث من الطيب كما يميز الإنسان معادن الذهب والفضة من غيرها من شوائبها الدخيلة عليها .

ومدار الفتنة من جهة الاصطلاح في كلام الله تعالى وكلام رسول الله ﷺ يكون على الباطل ، ومجموع استعمال الشارع للفتنة يرجع إلى أمرٍ واحد ومرده هو التغير الذى يطرأ على الإنسان من جهة عقيدته أو فكره أوسلوكه.

والفتنة في كلام الله تعالى وكلام رسول الله ﷺ هى تغير الإنسان من حقٍ إلى باطل أو تغيره من حقٍ أحق إلى حقٍ دون ذلك ، وهو ما كان عليه استعمال الصحابة عليهم رضوان الله تعالى وأئمة الإسلام من التابعين وأتباعهم .

وجاء استعمال الفتنة في كلام الله تعالى في كتابه العظيم وسنة نبيه ﷺ على التغير ولكن ربما يأتى ذكر الفتنة بالسبب الذى أحدث التغير ;ولهذا يجعل الله تعالى الأشياء فتنة للناس حتى يتغيرون لأجلها امتحانًا واختبارًا ، فيفتن الناس بعضهم ببعض ، بل أن الله تعالى جعل ذكر شجرة الزقوم فتنة للظالمين يعنى أن هذه الشجرة التى تنبت في أصل الجحيم فتنة فيقول المنافقون والكافرون كيف تكون شجرة ثم تكون في النار ولا تأكلها النار ! فجعلها الله تعالى فتنة تصرفهم عن الحق، ولله القدرة في تغيير تركيب الماديات من حال إلى حال ، وكذا حال الآخرة يختلف عن حال الدنيا فيفتنهم الله تعالى بشيء لا تدركه عقولهم ليصرفهم عن الحق.

قد جاء عن غير واحد من السلف كما روى الحاكم في المستدرك من حديث أبي عمار عن حذيفة بن اليمان قال (إِذَا أَحَبَّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَعْلَمَ أَصَابَتْهُ الْفِتْنَةُ أَمْ لَا، فَلْيَنْظُرْ فَإِنْ كَانَ رَأَى حَلَالًا كَانَ يَرَاهُ حَرَامًا فَقَدْ أَصَابَتْهُ الْفِتْنَةُ، وَإِنْ

كَانَ يَرَى حَرَامًا كَانَ يَرَاهُ حَلَالًا فَقَدْ أَصَابَتْهُ)[٢] يعني حدث لديه شيء من التغير وهذا التغير ينظر إلى سببه ،وسبب التغيرقد يكون حق وقد يكون باطل والغالب أنه يكون باطلاً ، فإذا نظر الإنسان إلى ميزان ذلك وهو من كلام الله تعالى وكلام رسول الله ﷺ فهي الحكم على تغيرات الناس .

أهمية الحديث عن الفتنة

الفتنة موجودة في كل زمن وذلك ما وجد الصراع بين الخير والشر وما وجدت المراتب بين الخير في ذاته وما وجدت الدركات بين الشر في دائرته ، فقد وجد في زمن النبي ﷺ من الفتن الكبرى من الكفر والشرك والنفاق ومن الفتن الصغرى التي تكون بين الناس كفتنة المال والأهل والولد والخصومة والشجار التي تكون بين أفراد المسلمين .

ولعل أهمية الحديث عن الفتنة يبرز باعتبار أنه لا يخلو زمن من الأزمنة إلا بورود فتنة عمت أو خصت ، وكذلك أيضًا ما من أحدٍ من الناس إلا ويفتن ولو كان في دائرة فتنة يسيرة .

وذلك كما جاء عن النبي ﷺ في قصة حمل الحسن والحسين (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْطُبُنَا فَجَاءَ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ عَلَيْهِمَا قَمِيصَانِ أَحْمَرَانِ يَمْشِيَانِ وَيَعْثُرَانِ ، فَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْمِنْبَرِ ، فَحَمَلَهُمَا فَوَضَعَهُمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ : صَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾(التغابن : 15) نَظَرْتُ إِلَى هَذَيْنِ الصَّبِيَّيْنِ يَمْشِيَانِ وَيَعْثُرَانِ ، فَلَمْ أَصْبِرْ حَتَّى قَطَعْتُ حَدِيثِي فَرَفَعْتُهما)[٣] فجعل النبي ﷺ ما يتعلق بالأولاد وهما أبناء ابنته عليها رضوان الله تعالى ضرباً من ضروب الفتنة ولكن هذا من المعاني الدقيقة التي لا يدركها إلا من هو في مقامٍ أمين .

[٢]) رواه الحاكم في "المستدرك" (514/4) .
[٣]) رواه أحمد (354/5) النسائي (108/3) الترمذي (658/5) .

تحديد الفتنة

يفتن الله تعالى الناس ويبتليهم ليميز الخبيث من الطيب ويخرج الأدعياء من الصف ، فالناس يسيرون في قافلة الإسلام سعاةً وهناك أصحاب المنافع في طريق الحق ، فيبتلى الله تعالى أولئك حتى يتساقط أهل الباطل ويظهر أهل المعدن النظيف الصحيح .

والله تعالى أنزل الابتلاء والامتحان والاختبار ليميز الخبيث من الطيب وكذلك أوجد نصوصاً ظاهرة بينة تميز الحق من الباطل ، والناس بحاجة إلى عقولهم المجردة حتى يعرفوا الحق من الباطل ، بل أنزل الله تعالى في كتابه العظيم وفي سنة نبيه ﷺ نصوص تميز تلك الطرق وتلك المشارب والأفكار والعقبات التي تكون في طريق الناس وكذلك أوصاف السالكين سواء كانوا من أهل الحق أو كانوا من أهل الباطل .

والفتنة من جهة الاختلاط هي اختلاط الحق بالباطل وإذا التبست الحقائق فإن الناس يصدرون بحسب ما انقدح في آذانهم من تقييم الأشياء ، فإذا كان الناس في ظلام فإنهم ينحرفون يمنةً ويسرة بحسب ما يظنون أن الحق هنا أو قبس النور الذي يسيرون إليه ، ولكن إذا جاء نور العلم تزول الشبهة وتزول الفتنة .

وسبب وجود الفتنة هو الجهل ولهذا جاء عن النبي ﷺ كما جاء (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، قَالَ رَسُولُ اللهِّ صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَكْثُرَ الْهَرْجُ " ، قَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِّ ، وَمَا الْهَرْجُ ؟ قَالَ : " الْقَتْلُ ") [٤] فأشار النبي ﷺ إلى شيء من التلازم وهو قبض العلم وظهور الجهل ، والعلم المراد به هو العلم بالوحي من كلام الله تعالى وكلام رسول الله ﷺ.

وهذا يميز الفتنة الشخص الذي اجتمع فيه أمران : العلم والتجرد .

إذا تجرد الإنسان ولم يكن عالماً فإنه يجازف وإذا ملك الإنسان العلم ولم يكن متجرداً فإنه يَضِل ويُضِل ، ولهذا ينبغي للإنسان إذا أراد التمييز في مسألة الفتنة ومعرفة الحق من الباطل أن يذهب إلى عالمٍ متجرد ، عالم بكلام الله تعالى وكلام رسول الله ﷺ ، عالم بالحال التي ينزِّلُ فيها ، فلا يأتي بنص وينزله في غير موضعه الذي أراده الله تعالى حتى لا يقع لبسٌ فيفتن الناس .

٤) رواه البخاري كتاب الفتن باب (15 رقم 7120) (88/13 فتح الباري) ، ورواه مسلم كتاب الفتن (18-13) .

وكذلك التجرد ينبغي أن يكون لديه تجرد ، فكلما كان الإنسان أكثر تجردًا فإنه أكثر إصابة للحق ، ولهذا الأمة تعاني من الفريقين : الفريق الأول من أُناسٍ متجردين ولكنهم ليسوا بأصحاب علم ، وكذلك من علماء لكنهم ليسوا بمتجردين حينئذٍ يقع الخل في تقييم الفتن .

والتجرد ألا يكون للإنسان حظ في حظوظ الدنيا ولا يقدم على أمر الله أمر غيره لشيء من الأهواء والمطامع والمشارب أو المصالح الذاتية حتى ولو كانت في أمور الأموال والأولاد والحفاظ عليها ، ولهذا يقول الله تعالى ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾(التغابن : 15) أي تقودك إلى الفتنة باتخاذ أمر يخالف أمر الله تعالى.

والأمة لا يمكن أن يتحقق لها إصابة الحق ومعرفة الحق من الباطل في زمن الفتنة إلا بهذين الشرطين : أن يتوفر في الإنسان العلم وأن يكون متجرداً ، وتضل الأمة بين جاهلٍ ليس بعالمٍ أو بين عالمٍ ليس بمتجرد ، فإذا اختل هذا الميزان تضل الأمة وتبتعد عن منهجها الذي رسمها الله تعالى له .

والفتنة الحقيقة هي التي حذرنا الله تعالى منها ونص عليها في كتابه الكريم ؛ ولهذا قال حذيفة بن اليمان عليه رضوان الله (لَا تَضُرُّكَ الْفِتْنَةُ مَا عَرَفْتَ دِينَكَ ؛ إِنَّمَا الْفِتْنَةُ إِذَا اشْتَبَهَ عَلَيْكَ الْحَقُّ وَالْبَاطِلُ)[٥] وقد جاء عن حذيفة بن اليمان من النصوص في ذلك الكثير وهو من أعلم اصحاب رسول الله ﷺ في أمور الفتنة وكذلك في إخبار النبي ﷺ له عن شيء من الفتنة العاجلة والآجلة .

وخلاصة الأمر : أنه في زمن الفتن لا يقبل من عالمٍ ليس بمتجرد ولا يقبل من متجردٍ إذ لم يكن عالما ، لابد للإنسان أن يجمع الأمرين حتى يُصيب الحق الذي يريده الله تعالى ، فلا ينظر لأمور الفتنة بمنظار خاص ولكن الميزان هو ميزان الشرع في كلام الله تعالى وكلام رسول الله ﷺ .

ولهذا يقول تعالى﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾(الأنفال: 25)

هذا إشارة إلى نوعين من الفتنة : العامة والخاصة ، فالفتنة لها مراتب ولها درجات ينبغي النظر إليها ، ولها أنواع وهذه الأنواع لابد من معرفتها ، فالفتنة العامة أخطر من الفتنة الخاصة، ففتنة الشرك أعظم من سائر الفتن ، فلابد من معرفة هذه المراتب حتى لا يقع خلل في الاختيار فربما يتكلم الإنسان على جزئية معينة من أبواب الفتن وأنواعه فيقع في إصابة هذه الجزئية ، ولكن بالنظر إلى سياقه يقع في فتنة أكبر في قوله.

ولهذا المنافقون لما جاءوا لرسول الله ﷺ ودعاهم للخروج للجهاد ، قالوا ﴿ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي ﴾ (التوبة : 49) فقال الله تعالى ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ (التوبة : 49) فهو من جهة النظر إلى حالهم

٥) أخرجه ابن أبي شيبة (15/ 70) .

يقولون للنبي ﷺ يريدون أن يذهبوا للقتال ولا يريدون أن يتعرضوا لفتنة نساء بني الأصفر وذلك لما فيهن من الجمال فأرادوا أن يبتعدوا عن مواطن الفتنة ، هذا النظر إليه بذاته من جهة حاله هو فتنة ، بينما كلامهم صحيحٌ في ظاهره إذا نظرنا إليه مجردًا ;ولكن إذا نظرنا إليه في سياقه وجدنا أنه باطل من البواطل وفتنة في ذاته عظيمة ؛ ولهذا يقول الله تعالى ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ﴾ (التوبة : 49) لأن النبي ﷺ يقاتل المشركين دفعًا للشرك وتحقيقًا للتوحيد فمثل هذا الأمر ينبغي ألا يُنظر إليه .

ولهذا لما سأل عمر بن الخطاب عليه رضوان الله (أيكم يحفظ قول النبي صلى الله عليه وسلم في الفتنة ؟ قال حذيفة بن اليمان : فِتْنَةُ الرَّجُلِ فِي أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَجَارِهِ تُكَفِّرُهَا الصَّلَاةُ وَالصَّدَقَةُ وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنْ الْمُنْكَرِ قَالَ لَيْسَتْ هَذِهِ وَلَكِنْ الَّتِي تَمُوجُ كَمَوْجِ الْبَحْرِ) [٦] فعمر بن الخطاب يدرك أن ثمة فتن متنوعة وحذيفة بن اليمان ذكر هذه الفتن لأنها لصيقة بكل الأفراد فتنة المال والولد والأهل ، فكل الناس تقع في هذه الفتن لكن عمر بن الخطاب لكونه خليفة ويهتم بأمر المسلمين ما أرادها وإنما أراد الفتنة العظمى.

وعليه فإن الفتن لابد النظر إليها من جهة مراتبها ، ربما إذا وجدت مصلحة من المصالح الشرعية وجدت مصلحة عظمى فالمصلحة العظمى تلغي المصلحة الدنيا ، ولهذا النبي ﷺ لما كان يقاتل المشركين وكان في المدينة ثمة فتن منها النظر إلى النساء والاختلاط والخلوة والزنا ، وهذه من الفتن التي يقرها النبي ﷺ ، فجاء المنافقون إلى النبي ﷺ أرادوا أن يستعملوا مثل هذه الأشياء وهي مصطلحات شرعية فقالوا ﴿ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي ﴾ لا تفتني بالنساء ، فقال الله تعالى ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ﴾ (التوبة : 49) لأن مصلحة دفع الشرك أعظم من هذه المصالح كلها .

وعليه فإن المصلحة الكبرى إذا ظهرت في الشريعة فإنها تُلغي ما كان دونها من المصالح ؛ ولهذا القاتل فتنة ، ولكنه إذا حضر في سبيل الله كقتال المشركين أصبح شهادة ولغى ما دونه ، فمعرفة المراتب في أمور الخير ومعرفة الدركات في أمور الشر تعطي العالم تمييزًا في مواضع الفتنة وكذلك تمييزًا في معرفة أنواعها العام منها والخاص ، فإذا أدرك الإنسان ذلك استطاع أن يصيب بمعرفة الحق من الباطل وكذلك يزيل الغبش وألا يلتفت إلى قول من يقول بإنزال الفتنة على بابٍ معين أو على فعلٍ معين أو على مصلحة معينة ، وهو يحكم عليها بذاتها لا يحكم عليها بسياقها ولو نظر إليها لسياقها لوجد أن قوله فتنة وليس هو الحق الذى يُسعى إليه .

---

٦) رواه البخاري ، كتاب الفتن ، باب الفتنة التي تموج كموج البحر ، فتح الباري : (48/13) . ورواه مسلم في صحيحه ، كتاب الفتن ، باب الفتنة التي تموج كموج البحر ، (2218/4) واللفظ للبخاري .

أنواع الفتنة

الفتنة تنقسم إلى فتنة عامة وفتنة خاصة هذا من جهة أنواعها ، وأما بالنسبة لمراتبها فلها مراتب متعددة جدًا ، فتن كبرى وفتن صغرى وفتن دون ذلك ، وأخطر أنواع الفتن هى فتنة الدين ، وأخطر فتن الدين هو ما يتعلق بالشرك ؛ ولهذا سمى الله تعالى الشرك فتنة ، يقول تعالى ﴿ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ (البقرة : 191) يعنى من ذلك أن الفتنة إذا حضرت فإن القتل لا يسمى فتنة وإنما يلزم اسمه الخاص ، والقتل في ذلك وإن كان محرم ولكنه إذا كان في سبيل الله تعالى يصبح شهادة ، فأصبح القتل في سبيل الله تعالى شهادة وحق أحقه الله تعالى فكما قال النبي ﷺ كما جاء في الصحيح (أُمِرْتُ أَنْ أُقاتِلَ النّاس حتّى يشْهدُوا أنْ لا إله إلّا اللهُ، وأنّ مُحمّدًا رسُولُ الله، ويُقِيمُوا الصّلاة، ويُؤْتُوا الزّكاة، فإذا فعلُوا ذلِك عصمُوا مِنّي دِماءهُمْ وأمْوالهُمْ إلّا بِحقِّ الإسْلامِ، وحِسابُهُمْ على اللهِ)[٧] وهذه أحكام لها ضوابطها وليس مبحثها في مثل هذا الموضع ولكن هذا على سبيل الإجمال .

وأخطر أنواع الفتن الدينية هو ما يتعلق بالشرك وهو أعظمها ، وأمر الله تعالى بدفعه ودرئه وجعل على كل مفسدة تعوق وتحول دونه من الفتنة، ولهذا الذين يحذرون أصحاب النبي ﷺ من القتل وفقد الأهل والمال والنفس ، فهذه من المصالح الشرعية ولكن السعى إليها فتنة لحضور الغاية الكبرى وهي دفع الشرك.

أولوية درء الفتنة العظمى

دفع الفتنة العظمى يلغي الفتن الدنيا ، ولعل أخطر الفتن فتنة تقليب الحقائق وقلب المصطلحات،قلب الإيمان بالكفر والكفر بالإيمان ، قلب الخير بالشر والشر بالخير ، تسمية الإيمان بالله تعالى وبرسوله وبملائكته وبكتابه وبالقدر شره وخيره أنه شيء من الغباء والدروشة أو غير ذلك ، هذه فتنة عظيمة جداً.

ولهذا يقول الله تعالى في كتابه العظيم ﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ ﴾ (التوبة : 48) فتقليب الحقائق فتنة عظيمة وما يسمى في زماننا بأزمة المصطلحات وتغيير المصطلحات الشرعية وقلبها حتى يقلب ما

---

٧) رواه البخاري : الجهاد والسير (2786)، ومسلم : الإيمان (21)،والترمذي :الإيمان (2606) ،والنسائي: تحريم الدم (3971)،وأبو داود :الجهاد (2640)،وابن ماجه: الفتن (3927)، وأحمد بن حنبل في مسنده (11/1).

دونها من حقائق ومفاهيم وآراء ، مثلاً ما يسمى بالجهاد قلبه إلى ما يتعلق بالمقاومة وغير ذلك ، سلب المصطلح الشرعي من وصفه ، حتى لا يتعلق الناس بالشريعة .

لهذا فإن الفتن متعددة الأنواع متعددة المشارب ، أصولها معروفة في الشريعة ، يُرجع إلى معرفة هذه المراتب ويُرجع إلى معرفة هذه الدرجات إلى الشريعة لا إلى أذواق الإنسان ولا إلى حظوظهم ، الإنسان ربما تكون له مصلحة شرعية في ذاته ولكن هذه المصلحة الشرعية تُلغيها مصلحة أعظم فلا ينبغى للإنسان أن يقدم مصلحةً شرعية خاصة به على مصلحة عامة في الأمة فيفتتن الإنسان في ذاته وتفتن الأمة ، ولهذا جاءت الشريعة بتحقيق المصالح العامة على المصالح الدنيا وكذلك أيضاً درء الفتنة العظمى ولو تحققت فتنة دنيا في ذات الإنسان وذلك له مراتبه ومواضعه في الشريعة ينظر إلى كل مسألة بحسبها .

والفتنة الموجودة عند كثير من المنتسبين للعلم أو كثير من الدعاة أوربما المصلحين أو عند الساسة أو بعض العلماء في هذا الباب يسمون شيء فتنة وهو في حقيقة الأمر تسميته فتنة هو من الفتنة .

والفتنة في ذاتها لا ينظر إليها منفردة بل يُنظر إلى سياقها ، كثير من الجهاد في سبيل الله تعالى يسمى فتنة وهو في الحقيقة يسمى جهاد وتسميته فتنة من الفتنة ، كثير من الحق الذى يسمى بأنه باطل ، تسميته باطل هى من الفتنة التى حذر الله تعالى منها ؛ لهذا فإن الإرجاع للمصطلحات ليس لأذواقنا ولا إلى رغباتنا وإنما يرجع في ذلك إلى فَهم الشريعة ، كثير من الناس من يربط الفتنة بمفهوم معين ينقدح في ذهنه ، ثم يقوم بوضع الشريعة وأطرها عليه في دائرة معينة ، وذلك أنه ينظر مثلا إلى ما يتعلق بما يريد الناس من العامة والجماهير أو ينظر إلى ما يريد السلطان أو ما يريد الأحباب أو ينظر لمصلحته الذاتية بالحفاظ على مكتسباته وماله وجاهه ونحو ذلك ويعطل المصالح الشرعية ، هذه الأشياء الجزئية هي فتنة ولكن إذا وجد الشيء الأعظم ينبغى أن يُلغى ما دونها .

موقف العلماء من الفتنة

يقع على العلماء مهمة البيان ومهمة إعادة الأمور إلى نصابها ، فهؤلاء الذين قلبّوا الحقائق بحاجة إلى إعادتها ﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ ﴾ (التوبة : 48) ما هى الأمور التى قلبها ؟ ومن الذى يميزها ؟ يميزها العالم ، فقد يضطرب الإنسان حتى لو كان طالب علم ،إذا لم يعرف مراتب الشريعة وذلك إذا كان ثمة سيل جارف من الإعلام بوصف شيء أنه ضلال أو تشدد أو تطرف أو غير ذلك ووصف المقابل أنه فتنة ، فهذا من الفتن بقلب الحقائق التى تبتلى به الأزمنة المتأخرة ، فبيان الفتنة عند أهل العلم وذلك أن سبب وجود الفتن

هو نقص العلماء وذهابهم ولهذا يقول النبي ﷺ كما جاء في الصحيح من حديث أبي هريرة ﴿ لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقْبَضَ الْعِلْمُ ، وَيَظْهَرَ الْجَهْلُ ، وَتَظْهَرَ الْفِتَنُ ﴾[٨] يعني أن ثمة تلازم شديد بين وجود الجهل ووجود الفتن .

ولهذا إذا ظهرت الفتن فلنعلم أن ثمة أمرين :

الأمر الأول : إما عدم وجود علماء استحقوا وصف العلم وتجردوا لله تعالى.

والأمر الثاني : يوجد علماء صوروا بأنهم علماء ولكن في الحقيقة أنهم ليسوا علماء .

قد روى الدّارمي في كتابه السنن من حديث عبد الله بن مسعود قال ﴿ كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا لَبِسَتْكُمْ فِتْنَةٌ يَهْرَمُ فِيهَا الْكَبِيرُ وَيَرْبُو فِيهَا الصَّغِيرُ ، وَيَتَّخِذُهَا النَّاسُ سُنَّةً ، فَإِذَا غُيِّرَتْ ، قَالُوا : غُيِّرَتْ السُّنَّةُ " ، قَالُوا : وَمَتَى ذَلِكَ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ ؟ ، قَالَ : " إِذَا كَثُرَتْ قُرَّاؤُكُمْ ، وَقَلَّتْ فُقَهَاؤُكُمْ ، وَكَثُرَتْ أُمَرَاؤُكُمْ ، وَقَلَّتْ أُمَنَاؤُكُمْ ، وَالْتُمِسَتِ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الْآخِرَةِ ﴾[٩] هذه الأسباب التي ذكرها عبد الله بن مسعود هي الموجودة في الزمن المتأخر وهي موجودة ومتأكدة في زمننا ، وذلك أنه ليس كل من أجاد الحرف أو أجاد التدوين أو أجاد الكتابة أو نطق منطق أهل العلم أنه عالمًا ، فلابد أن ينظر إلى العلم الحقيقي الذي أمر الله تعالى به فالعلم الخشية كما قال الله تعالى ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾(فاطر : 28) العالم الحق الذي يقف عند حدود الله تعالى وأوامره فيعظمها أكثر من تعظيمه لحظ نفسه ولجاهه ولمنصبه ، وكذلك يعظمها أكثر من تعظيمه لمقامه في الناس ونظرة الناس إليه .

والأمة محفوظة ما حفظ العلماء وما حفظ لهم قدرهم وما لم يغيبوا فإن الله تعالى يهدي بهم ، ولهذا يروى في المسند من حديث أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال ﴿إِنَّ مَثَلَ الْعُلَمَاءِ فِي الْأَرْضِ كَمَثَلِ نُجُومِ السَّمَاءِ ، يُهْتَدَى بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾[١٠] النجم في السماء لا يطاله شيء من التحرك وذلك لثبوته يثبت في موضعه الذي هو عليه ولكن الذي يتحرك عنه الناس ، ولكن إذا وجد من غيّبه وأبعد صوته عن إظهار الحق ، بأن يضع بينه وبين الناس أسقف أو سحب بحيث لا يُرى حينئذٍ تقع الفتنة .

وأعظم الفتن هي الفتن الدينية ، وكثير من الناس ينظر للفتن من جزئية معينة كفتنة المال أو فتنة العمل ويجعلون الكفر ولو استقر على بلدان المسلمين وتجيش الجيوش على بلدان المسلمين وحكمت من دون المسلمين فإن ذلك

---

٨) رواه البخاري : الفتن (7121) ، ومسلم : الفتن وأشراط الساعة (157).
٩) أخرجه ابن أبي شيبة (8/ 599) حدثنا أبو معاوية عن والدارمي(1/ 75) أخبرنا يعلى ثنا والحاكم (4/ 560).
١٠) أخرجه أحمد (157/3 ، رقم 12621).

أولى من قتالهم وذلك أن إراقة دم واحدة ولو كانت في المشركين ضرب من ضروب الفتنة لا شك أن ذلك هو الفتنة التي حذر الله تعالى منها ، كذلك ما يتعلق بقلب الحقائق والمصطلحات الجديدة التي وردت علينا .

ونصاب الحق وتمييزه ينبغي أن يُرجع فيه إلى كتاب الله تعالى والسنة لا إلى الأذواق ولا إلى الأفهام ولا إلى الرغبات الخاصة ولا إلى المطامع ولا إلى رغبات الجماهير ولا إلى رغبات السلاطين حتى لا يقع الخلط في ذلك فيضل الناس بكلام عالم.

والفتنة ليس بمصطلح قائم في ذاته للإنسان أن ينزل فيها ما شاء ، لابد أن ينظر إليها في سياقها فإذا وجد حق هو أعظم منها ينبغي أن يوضع فإن تسمية الشيء بالفتنة هو الفتنة ؛ ولهذا كثير من الناس إنما يستعملون الفتنة في أوضاع معينة وأكثر ما يتعلق بها في أمر الحاكم وأمر العامة وهذا من الأخطاء العظيمة بحصرها في مثل هذا الجانب حتى يتمثل للناس أن الكفر ليس بفتنة أو الضلال ليس بفتنة أو الزيغ والفواحش والمنكرات ليست بفتنة وإنما الفتنة هي خلخلة الناس واضطرابهم ولو كان على حق .

ولهذا نقول إن افتراق الناس على الحق أولى من اجتماعهم على باطل .

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وكذلك الإصلاح قد ربطت خيرية الأمة به ، قد يوجد صور من أمور الإصلاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ربما يتحقق فيها مفسدة أعظم من هذا وهي صور نقدرها بقدرها ولكن ليست هذه الشريعة العامة ؛ ولهذا إحقاق الحق وبيانه ودفع الشر وبيانه ودحض الشك لاشك أنه من أعظم الحق الذي أمر الله تعالى به ، وتسمية ذلك فتنة هو الفتنة التي حذر الله منها وكثيراً ما تسمى الفتنة بالفتنة وهي في غير موضعها وهي من الحقائق التي تُغلب كما قال الله تعالى ﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾ (التوبة : 48) .

لذا ينبغي بيان الحقائق وتجليتها بنصوص الكتاب والسنة وألا يوغل الإنسان وأن يجعل الفتنة دليل بذاتها في مواجهة الحق، وكذلك الإنصاف يتوجه كثير من الناس في وصف الإصلاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بأنها ضرب من ضروب الفتنة أو ربما أيضاً حمّلوا ذلك في أذهان العامة الذين يصلحون ما فسد من أحوال الناس أن هؤلاء دعاة فتنة أو مثلاً يتكلمون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو وجود مثل هذه القوالب في أذهان الناس حتى يقومون بتنزيلها بين فترة وأخرى على أحوال المصلحين ،لا شك أن مثل هذا أيضًا من الفتنة .

فالإصلاح العام وما يتعلق بأموال الناس في دينهم يعتبر من الإصلاح الواجب ولكن وصف المصلحين بأنهم يريدون فتنة لاشك أن هذا إضلال وفيه تجرئة للحاكم على الاستمرار في مخالفة الحق ، وكذلك إساءة الظن

بالمصلحين بأنهم الذين يشوشون بين الحاكم والمحكوم يريدون فتنة ويخلقون فجوة لم تكن موجودة وتأليب الناس ، فينبغي تمييز ذلك ببيان الدليل وبيان الحجة من الكتاب والسنة وعدم الالتفات لأقوال هؤلاء ، لأنه لو التفت الإنسان إلى أمثال هؤلاء تعطّل الخير وتمكن الشر ، وما من زمن من الأزمنة إلا ولهؤلاء أسالف لهم دوافع إما الهوى أو شيء من المطامع والمصالح .

اعتزال الفتنة

الناس في باب الاعتزال على نوعين :

علماء : ينبغى لهم أن يخوضوا في دائرة إحقاق الحق وبيان الباطل بالدليل والحكمة وبيان ذلك بالواقع وكذلك بالمنطق قدر وسعهم وإمكانهم حتى لا يقع التباس في أمر الناس .

والعامة : ينبغي أن يعتزلون الفتنة ؛ لأن العامي يقع فيه شيء من الاضطراب ، والاضطراب ضرب من ضروب الفتنة التي حذر الله تعالى منها فربما يدخل الإنسان موضع الصراع العقدي أو الفكري فتنتشله شيء من الشبهات فينبغى عليه أن يبتعد عن مواضع الفتن وقد حذر النبي ﷺ بالخوض فيها كما جاء في غير ما موضع من أحاديث النبي ﷺ قال (يُوشِك أن يكون خيرَ مالِ المسلم غنمٌ يتّبعُ بهاش عثَ الجبال ومواقع القطر يفِرُّ بدينه من الفتن) [11] أي يفر الإنسان ويعتزلها وقد جاء أحاديث كثيرة في اعتزال الفتن عن النبي ﷺ وهي شبيهة بالتواتر .

فتنة موالاة الكافرين

يقول الله تعالى ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾(الأنفال : 73)

ويقول تعالى ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ﴾(المائدة : 33) .

الكفر هو أعظم الفتن ولهذا يقول الله تعالى ﴿والفتنةُ أشدُّ من القتلِ﴾(البقرة : 191) ويقول جل وعلا ﴿والفتنةُ أكبرُ من القتلِ﴾(البقرة : 217) بيّن الله الفتنة وهي الكفر وهي باتفاق المفسرين ، ويدخل في دائرة الذين يوالون

[11]) رواه البخاري (19) في عدة مواضع من صحيحه ، وبوب عليه باب: خَيْرُ مَالِ الْمُسْلِمِ غَنَمٌ يَتْبَعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ ، بَاب عَلَامَاتِ النُّبُوَّةِ فِي الْإِسْلَامِ،بَاب الْعُزْلَةُ رَاحَةٌ مِنْ خُلَّاطِ السُّوءِ ،بَاب التَّعَرُّبِ فِي الْفِتْنَةِ .

الكافرين من دون المؤمنين فالموالاة للكافرين دون المؤمنين وتقديمهم على المؤمنين لا شك فتنة وضرب من ضروب الإضلال وهو كفر بالله تعالى ، ولهذا المولاة من الفتنة الدينية واتخاذهم بطانة من دون الله ، إقامة الحدود التى أمر الله تعالى بإقامتها وذلك أيضا بالحرابة لمن حارب الله تعالى، وكذلك أيضاً سفك الدماء وقطع الطريق ، فتعطيل ذلك هو من الفتنة وذلك لأن أعظم الحق هو إقامة العدل والإنصاف بإقامة حد أمر الله تعالى بإقامته فإذا عُطِّل كان ذلك فتنة وضلالا مبينا .

فتنة العلماء والدهماء

ثمة فتنتان فتنة خاصة وفتنة عامة ، الفتنة الخاصة وهي ما يتعلق بالسلاطين والأمراء والوجهاء وأهل الأموال وكذلك أيضاً أهل الجاه والحظوة في الناس ممن لهم وجاهة فهؤلاء لهم فتنة باعتبار أن الإنسان يخطب ودهم وهذا ربما يؤثر على قول الإنسان وفعله .

والفتنة العامة وهي فتنة الدهماء وسبب فتنتهم الجهل ، وقد حذر النبي ﷺ من هاتين الفتنتين من فتنة الخاصة وفتنة العامة ، وفتنة الخاصة على ما تقدم من تقدير المال والجاه كما تقدم من قول رسول الله ﷺ ، والفتنة العامة وما يتعلق بالتأثر بهم والتأثر الجماهيري وذلك بالالتفات إليهم وما يرغبون فيقوم الإنسان بشيء من التقلب ؛ لأن الجماهير لا يثبتون على أمر معين وقد جاء عن النبي ﷺ من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص وأصله في الصحيح أن النبي ﷺ قال (إِذَا رَأَيْتَ النَّاسَ مَرِجَتْ عُهُودُهُمْ ، وَخَفَّتْ أَمَانَاتُهُمْ ، كَانوا هَكَذَا ، فَشَبَّكَ بَيْنَ أَنَامِلِهِ " ، فَقُمْتُ إِلَيْهِ ، فَقُلْتُ : فَكَيْفَ أَفْعَلُ عِنْدَ ذَلِكَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ ، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ ؟ قَالَ : " الْزَمْ بَيْتَكَ ، وَأَمْلِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ ، وَخُذْ مَا تَعْرِفُ ، وَذَرْ مَا تُنْكِرُ ، وَعَلَيْكَ بِأَمْرِ خَاصَّةِ نَفْسِكَ ، وَذَرْ عَنْكَ أَمْرَ الْعَامَّةِ) [١٢] فحذر النبي ﷺ من ذلك ؛ لأن تحليل العوام في الحوادث ربما يكون لديهم شيء من الرغبة لكنهم لا يدركون العواقب فلابد أن ينظر الإنسان إليها في الدليل الشرعي وأن ينظر إلى العواقب في أقصى احتمالها .

وربما هناك من يبالغ بحدوث آثار فيريد للناس أن يحجموا عما يسعوا إليه ، وهذا أيضاً من الأمور التى يقع فيه المخادعة على أذهان المصلحين فينبغي للإنسان أن يزن ذلك بميزان تجرد من الكتاب والسنة .

والإنسان الذى يتأثر بهاتين الفتنتين ، فتنة الخاصة وفتنة العامة هو أكثر الناس انتكاسة وأكثر الناس تقلبا وتغييرا ؛ وذلك لأنهم يتغيرون على العامة مع رغبات أهل الجاه إذا تغير أى أحد من الخاصة سواء سلطان أو مثلاً أهل

١٢) أخرجه ابن أبي شيبة (447/7 ، رقم 37115) .

المال أو ربما أهل الحظوة في الدنيا يُخطب ودهم ، ولهذا يكون لهم كلام متعدد في قضايا متشابهة تختلف بعضها عن بعض ، وكذلك بالنسبة للعامة نوعٍ من الاختلاف بحسب رغباتهم وأهوائهم والناس لا جادة لهم ولهذا ينبغى على الإنسان إذا أراد الحق فإن الحق هو ما أحقّه الله تعالى.

فإذا كان الإنسان سائرًا إلى الله فلا يأخذ الطريق إلا منه لأنه الطريق إلى الله تعالى وهو أعلم به فبه يسترشد وبه يهتدى وبه يصيب وبه يخطأ فيسأل الله تعالى السداد والتوفيق والهداية.

الإنفراد ببيان الفتنة

كثير من الناس ينظر إلى قضية معينة ثم يحكم عليها بأنها فتنة باجتزاء حالة من سياق تام والحكم عليها حكماً مجرداً ذلك كحال المنافقين ، الذين حكموا على بعض أفعال النبي ﷺ أنها فتنة والنبي ﷺ ينظر إلى ما هو أعم من ذلك وهو إحقاق الحق وذلك بدفع الشرك وإقامة توحيد الله سبحانه وتعالى .

والحكم على قضية معينة بأنها فتنة وذلك أنه يسمع ربما من طرف واحد أو من قوم واحد أو ربما يسمع قولاً واحدا هذا لا شك أن يبني على جزئية معينة ولم ينظر إلى الصورة بكاملها ، فالنظر إلى الصورة بكاملها تعطي الإنسان حكما بما يريده الله تعالى لا تحركه في ذلك العواطف ولا تحركه في ذلك رغبة ورهبة ، وهذا أيضاً من الخلل الذى يقع عند كثير من الناس ، لهذا ينبغي للإنسان ألا يحكم بعلمه المجرد ولا بعاطفته وإنما يحكم بعلم الله تعالى بالنظر إلى الشيء ومآلاته وأحواله ، فمآل الشيء في ذلك إذا كان خيراً يقوم بإحقاقه ولو كان الحق في ذلك يسيرًا ، وإذا كان شراً فينظر إلى ميزانه وأقصى الشر لو حدث في ذلك وينظر إلى الحق الذى يريد تحقيقه فإنه لا يحق حقاً يسيرًا في ذلك ويكون في ذلك فتنة عظيمة ، وهذه الموازين هي موازين شرعية ليس للإنسان أن يضعها بمجرد عقله وليس أيضًا لأحد أن يضخم مثل هذه القضايا بذهنه برغبته بهواه بعاطفته أو ربما بسلطانه وجاهه بل ينظر الإنسان إليها باعتبار ما آتاه الله تعالى من علمٍ وتوفيق.

الاستعاذة من الفتنة وشرها

الجمع بين قول النبي ﷺ (تعوذوا بالله من الفتنة ما ظهر منها وما بطن) [١٣] كما في الصحيح ، وقول عبد الله بن مسعود (لا يقل أحدكم: أعوذ بالله من الفتن، ولكن ليقل: أعوذ بالله من مضلات الفتن) [١٤] :

أمر النبي ﷺ مع وجوده بالتعوذ من الفتنة لأن الفتن التي تكون في زمن النبي ﷺ ينزل الوحى فيها ويبينها ، أما الاختلاف الذى يكون بأمر الفتن في زمن الصحابة بعد وفاة النبي ﷺ فبه شيء من اللبس ربما يقع على بعض خواص الصحابة عليهم رضوان الله تعالى فيحتاجوا إلى وحي والوحي قد انقطع ، ولهذا لا نقول بعصمة الصحابة وإنما نقول بفضلهم وجلالتهم وتقدمهم على من جاء بعدهم وأدناهم مرتبة هو أعلى من أعلى ممن جاء بعدهم من أجلة التابعين ومن كان بعدهم ومن كان بعدهم كذلك .

فقول عبد الله بن مسعود لا تعوذوا بالله من الفتنة وإنما تعوذوا بالله من شر الفتنة لأن بعض الفتن لها خير ، وقد غاب الوحي الذى يميز ذلك فكان من الفتن ما هو خير وإنما تعوذ من شرها ولهذا يقول الله تعالى ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾(الأنبياء : 35) يعنى أن الفتنة ربما يكون فيها خير للإنسان وربما يكو فيها شر والأثر في ذلك هو التمييز ، إذا كان يقرب إلى الله فإن الفتنة هي خير عليه وإذا كان يبتعد عن الله تعالى فإن الفتنة في ذاتها شر عليه ، ولهذا الانسان ينبغي أن ينظر إلى المآل ويقيّم في ذلك الخير والشر بين هذين النوعين.

الحاكم والفتنة

الحاكم إذا ملك النظر والإدراك في الواقع فإنه يجب عليه ولا تبرأ ذمته إلا بالنظر مباشرةً بلا وسيط ، فإنه يميز الحق من الباطل ولا يعتمد على غيره ، لأنه موكول إلى الحكم بنظره ولهذا لا يقضى القاضي في خصمين إلا مع وجودهما وسماع بينهما أو من وكيل ينوب عن أصيل في ذلك يظهر منه الحق ؛ ومسائل العامة أخطر من مسائل الخاصة وينبغى النظر إليها بشيء من التجرد التام ، والنظر إلى أصحاب الحقوق والنظر أيضا على أصحاب

١٣) رواه مسلم (2867).
١٤) انظر تفسير البغوي : سورة التغبن (557).

المصالح الشرعية وعدم النظر إلى أصحاب الدعاوىٰ الذين ربما يعظمون المحقرات وكذلك أيضاً يحقرون العظائم .

وكما أنه يوجد من الناس من يجعل من الأمور العظيمة يسيرة كذلك هناك من الناس من يجعل الأمور اليسيرة عظيمة ، فينبغى أن يُلزم الإنسان بما يكلفه الله تعالى به .

خلاصة ذلك : أن الحاكم إذا كان يستطيع أن يدرك ذلك بنفسه فإن التكليف يقوم عليه بذاته خاصة ما يتعلق بأمور العامة ومصالحهم وأعراضهم فإنه يجب عليه أن ينصف على ما أمر الله وأن يقف على الأمر بنفسه لا أن يجعل له وسيطاً في هذا الباب خاصة في المصالح العامة .

وكما أن العلماء في مسألة الفتن على أمرين كذلك الحاكم :

الأمرالأول :- هم الذين تحقق فيهم وصف العلم الشرعي .

والأمر الثاني :- النظر إلى تجردهم .

فلابد من النظر إلى هذين الأمرين حتى لا يصح في ذلك القول ، وأما إذا كان الإنسان متجرداً بغير علم فإنه بذلك يجحف ويقوم بالمجازفة ، وأما إذا كان الإنسان عالماً بلا تجرد فإنه يَضِلُ ويُضَل وذلك لمصالح ذاتية فلابد من النظر إلى الأمرين ، فإذا توفى هذان الأمران في شخص من الأشخاص فإنه غالباً يسدد ويعان من الله تعالى.

توقع الفتنة

لابد للإنسان من توقع الفتنة لأن الفتنة إذا وقعت ربما تغير وربما وقع في شيء من الانحراف عن مراد الله تعالى وذلك لقوله تعالى ﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ﴾ (المائدة : 71) .

والفتنة التى تفاجىء الإنسان في طريقه ربما يتغير معها وهذا التغير الذىٰ يكون من الإنسان سببه هو أنه تفاجىء بشيء من الضلال وشيء من الشدة والامتحان والاختبار الذىٰ لم يكن متوقع ، ولهذا يقول الله تعالى ﴿ وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ ﴾ يعنى أنهم ضلوا وزاغوا عن مراد الله تعالى لأنهم ما توقعوا ذلك وكل الذين انتكسوا عن طريق الحق وضلوا عن المنهج القويم ، إنما ضلوا بسبب ابتلاء لحق بهم .

فينبغى للإنسان إذا كان سالكاً للحق أو كان حتى سالكاً في أمر الدنيا ، إذا كان غنياً ينبغى أن يحتمل وجود الفقر ، إذا كان صحيحاً ينبغى أن يحتمل وجود المرض ، إذا كان مثلاً رئيساً ينبغى أن يحتمل أمر العزل ، وإذا كان

مثلاً سيداً في قومه ينبغي أن يحتمل غيره ، حتى يتوطن الإنسان لمثل هذا الأمر ثم أيضاً يقوم الإنسان بالإنصاف من نفسه والإنصاف من الناس ، ولهذا الذين تغيروا إنما تغيروا زمن الخوف وزمن الشدة لا زمن الرخاء ، وهذا التغير الذي يطرأ عند كثير من الناس ، ينبغي أن يتوقع ويُتوقع ورود الفتنة فيما يتعلق بأمر ذاته بأمر ماله بأمر سيادته بأمر وجاهته إذا وقع لديه شيء من ذلك أدى به إلى شيء من الثبات والصبر ، والمعادلات المادية لا أثر لها من جهة صحة الشيء وخطأه ربما يغلب الإنسان وهو على باطل ولهذا يقول الله تعالى ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ (الممتحنة : 6) ويقول تعالى ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (يونس : 85) ولهذا جاء عن مجاهد بن جبر وكذلك عن قتادة أنه قال (لَا تُعَذِّبنَا بِأَيْدِيهِمْ ، وَلَا بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدك ، فَيَقُولُوا : لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ عَلَى حَقّ مَا أَصَابَهُمْ هَذَا)[١٥] أي يظن الغالب أنه على حق إذا غلب الصالح ، وليس هذا معياراً لمعرفة الحق فحذر الله من ذلك، وعليه فإن الأمور المادية ينبغي للإنسان أن يحذر منها وكذلك من الفتن التي يمحص بها الله تعالى الحق من الباطل ، كذلك فتنة القبر ، فتنة المحيى والممات ، وكذلك التي حذر النبي ﷺ منها .

أمر النبي بالاستعاذة من فتنة المحيى والممات وفتنة المال والجاه والذنوب والشرك والقتل والاستعاذة من ذلك مطلب وكذلك فتنة حياة البرزخ بسؤال الملكين ولهذا أمر النبي ﷺ الاستعاذة من الفتان كما جاء عن حديث عبد الله بن عمر ذكر الفتان يوماً والمراد بالفتان هو الملك الذي يفتن الإنسان في قبره بسؤاله : من ربك ؟ وما دينك ؟ فالإنسان إذا كان ثابت فإن جوابه حاضر ، فيقوم بالتلكأ والتردد وربما بالعجز والحيرة فحينئذٍ يميز الله تعالى أهل الإيمان الثابت الراسخ .

لهذا النبي أمر بالاستعاذة لأمرين : أن يقيه الله تعالى، وأن يعينه على معرفة أسباب الحق والاهتداء والتقوى بها وذلك من العلم والمعرفة والهداية فإذا أعين على ذلك وقاه الله تعالى وكفاه .

وليس لكل إنسان أن يضع علمه الذي لديه وهو جاهل بالواقع فربما أساء ؛ ولهذا العلماء يفرقون بين آلية العلم الشرعي وبين معرفة الواقع الذي يضع الإنسان علمه فيه .

---

١٥) تفسير مجاهد، 2/ 667، وتفسير الطبري، 23/ 320، وصحح إسناده في التفسير الصحيح، 4/ 473.

وقد جاء عن الإمام أحمد عليه رحمة الله كما ذكر القاضى بن أبى يعلى في كتابه الطبقات أنه سأله رجل (فقال: إن أبي يأمرني أن أطلق امرأتي؟ فقال: لا تطلقها؛ قال: أليس عمر أمر ابنه عبد الله أن يطلق امرأته ؟ قال: حتى يكون أبوك مثل عمر)[١٦].

إذاً فالنص اختلفت لما اختلف الحال واختلفت المصالح والنفوس التى تكون في الآباء ، فعمر بن الخطاب رجل محدث ملهم ؛ فيختلف حكمه عن حكم غيره.

فإن من ملك النص لا يملك تنزيله حتى يملك الواقع فإذا ملك الواقع يستطيع حينئذٍ أن يضع الأشياء في موضعها فيُسدد ويُعان .

١٦) ابن مفلح، الآداب الشرعية، ج1، ص488.